عبد القادر حمزة باشا

للدكتور زكي مبارك

منذ عامين مات الشاعر محمد الهراوي فتلبني الدمع بقوة وعنف، على قلة ما تدمع العين لفراق الراحلين من المعارف والأصحاب، وإنما كان ذلك لإيماني بأن الهراوي صديق لا تغيره الأيام ولا الليالي، فهو ثروة ضاعت من يدي إلى آخر الزمان

وفي هذه الأيام مات الكاتب عبد القادر حمزة فعرفت من جديد كيف تكون غزارة الدمع حين يموت الصديق، وكان عبد القادر صديقاً لا نظير له ولا مثيل، كان أخاً نقيّ القلب، عذب الروح؛ وكان مثالاً نادراً في حفظ الوداد بالمحضر والمغيب. كان دنيا باسمة من الأخوّة الروحية. كان كنزاً تزعته الأقدار من يدي، فأنا لفراقه محزون إلى آخر الزمان

لم أفكر مرة واحدة في الانتفاع بجاه عبد القادر حمزة باشا، وكان رجلاً مسموع الكلمة عند من يملكون تصريف الأمور، وإنما زهدت في الانتفاع بجاهه لأصون ما بيني وبينه من الوداد عن شوائب المنافع الدنيوية، وإن كان انتفاع الصديق بجاه الصديق أمراً لا يغض من أقدار الرجال

كانت صداقة عبد القادر حمزة جوهراً من أكرم الجواهر. كانت ذخيرة يدّخرها الحرّ لزمانه، فما يبالي أين تقع الحوادث، ما دام عبد القادر بخير وعافية. وهل أنسى أني لم أكن أبالي حوادث الأيام لأني كنت أعرف أن مكاني محفوظ في جريدة البلاغ لأرجع إليه حين أشاء؟

هل أنسى أني أملك نحو عشرين خطاباً دبّجها بيده صديقٌ كريم يُعزّ القلم والبيان؟

هل أنسى أن الصداقة التي جمعت بيني وبينه لم تكن إلا نتيجة لعداوة أثرتها في وجهه بصدق وإخلاص، وكان رحمه الله من أهل الصدق والإخلاص؟

لاحظتُ مرة أنه لا يستريح لبعض ما أكتب في جريدة البلاغ وكانت تناصر الوفد المصري وأنا أناصر الحزب الوطني، فكتبت إليه أستعفيه من الاشتراك في تحرير البلاغ، بحجة أني لا أستبيح الانتفاع بخزينة ليس مبدؤها من مبدئي ولا هواها من هواي، فكتب إليّ رحمه الله يقول:

«أكتب ما تشاء، وخزينة البلاغ تحت تصرفك»

فإن راجعتم «البلاغ» لذلك العهد ورأيتم فيه أشياء لا تنسجم مع سياسة «البلاغ» فاعرفوا أنها من قلمي، القلم الذي تمرّد على صاحب «البلاغ» ليظفر بمودة صاحب «البلاغ» وكان الصدق أعظم وسيلة لغزو ذلك القلب الأمين

لن ينقضي حزني لفراق عبد القادر، ولن أنسى جميله أبداً

ولو أن قلمي استطاع الاستشهاد بجميع ما قال الشعراء في الرثاء، لما كان في ذلك ما يصوّر لجيعتي في «الصديق الذي وصل جناحي، وراش سهمي» على حد التعبير الذي قدّمت به إليه كتاب «ذكريات باريس»

صحبت عبد القادر نحو خمسة عشر عاماً، فلم أره إلا جذوةً من الأقباس الروحية. ولو أني قضيت هذه المدة مع عدو لتحول إلى صديق، فكيف تروننا صرنا — وقد قضينا هذه المدة في إخاء وصفاء؟ كيف تروننا صرنا وقد كان التعاون الصادق أساساً لما بيني وبينه من وداد؟

كان عبد القادر في أعوامه الأخيرة يعتب عليّ أشد العتب، لأني لا أمر بداره للسؤال عنه وهو مريض، وكنت أعرف كيف أعتِبُه فأقول: سألت عنك في «البلاغ»، وأنا لا أعرف لك داراً غير دار «البلاغ»

فمن يعزّيني وقد ضاع حظي في عيادة ذلك العليل النبيل؟ من يعزيني ولم أسمع بموت عبد القادر إلا بعد أن غُضَّ مأتمه فلم أشترك في حمل نعشه ولم أقبّل جبينه قبل أن يوارَى التراب؟

من يعزيني في أخٍ كان لي وكنت له عوناً على الشدائد والخطوب؟

التفتُّ مرة، فلم أر غيره في سنة ١٩٢٨؛ والتفتّ مرة، فلم يرَ غيري في سنة ١٩٣١، فإلى مَن ألتفتُ إذا دجت الخطوب وبيني وبين عبد القادر بُعدُ ما بين الأحياء والأموات؟!

مات عبد القادر، مات أخي، فمن يعزيني؟

مات الرجل الذي لا يكذب ولا يغدر ولا يخون

مات الرجل الذى شهد خصومه بأن موته كان نكبة وطنية
مات عبد القادر ، مات أخى ، فمن يعزينى ؟ !

لو كان شقُّ الجيوب من شمائل هذا العصر لشققتُ جيوبى ، فلم يبق إلا أن أشق قلبى حزناً على عبد القادر ، وإنه بذلك لخليق . وهل من الكثير أن يصرعنى الحزن وقد فقدت صديقاً كان أعظم الذخائر فى دنياى ؟

وهل فقد الناس مثل مَن فقدتُ فى قديم أو حديث ؟

دلونى على صديق فى مثل أخلاق عبد القادر ، ليخفَّ عنى على الأقدار التى أطفأت نوره الوهاج ولم يَعدُ الثالثة والستين ؟

دلونى على صديق لا يثور علىَّ ولا أثور عليه ، وإن أسرفت الحوادث فى إفساد ما بين الأصفياء

أمثلك يموت ، يا عبد القادر ، وكان روحك بشير الخلود ؟

نعاك الناعون وبكاك الباكون ، يا عبد القادر ، وأنا وحدى أحمل من رزئك الأثقال ، لأنى أول وآخر من ظفر بثقتك الغالية ولأنك أول وآخر من وثقت بهم بلا تحفظ ولا احتراس

ما أحرَّ وجدى لفراقك ، يا أخى وصديقى !

وما أشقانى لبُعدك ، يا أصدق من عرفت بين أحرار الرجال !

أخى وصديقى :

أظلم نفسى وأظلم الحق إذا قلت بأن الدنيا لم تعرف رجلاً فى مثل شمائلك ، ولكنى أظلم نفسى وأظلم الحق إذا قلت بأنى عرفت فى حياتى صديقاً أنفع منك ، وكنت وحدك الرجل الذى أقنعنى بأن للصداقة مكاناً بين أطايب الوجود

أنا حزين لفراقك ، يا عبد القادر ، حزين ، حزين

وإن امتد الأجل ، فسوف أجزيك وفاء بوفاء ، وإخلاصاً بإخلاص .

أما بعد فما أحب أن يشغلنى بكاء هذا الصديق عن شرح بعض الشمائل التى صار بها رجلاً يضر وينفع ، ففى ذلك توجيه يستفيد به الناشئون من أبناء هذا الجيل

عرفت عبد القادر أول مرة — معرفة أدبية لا شخصية — عن طريق ما كان يكتب فى « الأهالى » سنة ١٩١٩ ، وكانت جريدة صغيرة الحجم ، ولكن أسلوبه فى تحريرها كان يجعل منها جريدة قوية لا يستغنى عنها من يحرص على غناء العقل والوجدان

ثم كانت « الأهالى » سميرى وأنيسى فى وحشة الاعتقال ، لأنها كانت تساير جريدة « الأمة » لسان الحزب الوطنى فى ذلك الوقت ، ومن لم ير كفاح « الأهالى » و « الأمة » فى محاربة « مشروع ملنر » فليس من حقه أن يتوهم أنه شهد صيال الأقلام فى خدمة القضية المصرية

كانت هاتان الجريدتان تصدران فى الإسكندرية ، وكان المعتقَل الذى صرنا إليه بعد معتقَل قصر النيل يقع بضاحية « سيدى بشر » وكان قبل وصولنا إليه معموراً بجماعة من أسرى الألمان فى الحرب الماضية

فى تلك المدة فُتِنْتُ فتنة شديدة بالمحصول الذى يصدُر عن « الأمة » و « الأهالى » ؛ فكان الجدل لا ينقطع بينى وبين إخوانى من المعتقلين حول ذلك المحصول الجزيل ، لأن المعتقلين كانوا ينقسمون إلى معسكَرين : معسكر الحزب الوطنى ومعسكر الوفد المصرى

فلما قضى الله بانتهاء كرب الاعتقال كان أول همى أن أزور الأستاذ محمد المهياوى رئيس تحرير « الأمة » والأستاذ عبد القادر حمزة رئيس تحرير « الأهالى »

وفى جريدة الأمة لقيت فقيد الوطنية عبد اللطيف الصوفانى بك فخيَّانى والدمع فى عينيه ، وقدَّم إلىَّ خمسة جنيهات لأقضى بها فى الإسكندرية أياماً أنسى بها متاعب الاعتقال ، فما دخلت الإسكندرية أول مرة إلا فى سيارة مقفلة من سيارات الجيش الإنجليزى وفى ظلمات الليل

ومضيت إلى جريدة الأهالى فرأيت فيها الأستاذ عبد القادر حمزة ، ورأيت فى صحبته رجلاً بسَّاماً هو الأستاذ محمد أبو المزّ ، وفتى عبوساً هو الأستاذ أحمد سعيد

وفى أوائل سنة ١٩٢١ دعانى الصوفانى بك لرياسة تحرير جريدة « الأفكار » وكنت من محرريها قبل الاعتقال ، فبذلت ما بذلت من الجهود فى تأييد الحزب الوطنى ومقاومة الوفد المصرى ؛ ولكن الأقدار لم تمهلنى فى رياسة تحرير الأفكار غير

عام وبعض عام . فقد اتفق الصوفانى بك مع الأستاذ عبد القادر حمزة اتفاقاً يقضى بأن تصبح الجريدة « وطنية وفدية » واشترط الأستاذ عبد القادر شروطاً كان أهمها أن يكون حرّ التصرف فى اختيار المحررين . واشترط الصوفانى بك أن يكون للحزب الوطنى محرر يعتمد عليه فى رعاية ما يهم الحزب من دقائق الشؤون ، وكان ذلك المحرر هو زكى مبارك . وقبل عبد القادر هذا الشرط وفى نفسه أشياء ، ومن أجل هذا لم يسمح بأن أنشر فى الأفكار غير مباحث أدبية لا تقدّم ولا تؤخر فى السياسة الحزبية ! !

ثم فوجئ عبد القادر بأن لى نشاطاً صحفياً يغيب عن عينه الواعية ، وهو مقالات كنت أرسلها إلى جريدة « الأمة » بإمضاءات مختلفات ؛ فأدرك أنْ لا أمل فى أن أسير كما يسير ، وأنى لو وجدت مسدساً لصوّبته بلا ترفق إلى صدر سعد زغلول !

عندئذٍ بدا لعبد القادر أنه يصاحب شاباً له أهداف ، فوثق بى ، وأخذ يحاول تبديد ما بينى وبين الوفد من بغضاء ، وتلطّف فدعانى إلى الاشتراك فى تحرير البلاغ عند ظهوره فى أوائل سنة ١٩٢٣ . ولكنى رفضت بحجة أن هواى لن يزال مع الحزب الوطنى

ولكن عبد القادر لم ينسَ ؛ فكان يدعونى من وقت إلى وقت لتحرير بعض المباحث الأدبية والاجتماعية . ثم دعانى للاشتراك فى تحرير (البلاغ الأسبوعى) ؛ ثم رأى أن أكون مراسل البلاغ فى باريس حين منيت لطلب العلم فى السوربون ، ثم وصلت به الثقة إلى أبعد الحدود ، فدعانى لرياسة تحرير البلاغ فى سنة ١٩٣١

فمن أراد أن يعرف بعض الشمائل التى رفعت عبد القادر حمزة فليذكر أنه كان يحترم أصحاب المبادئ ولو كانوا من خصومه الألداء ، فالعنف الذي وقع بينى وبينه كان سبب تآخينا وتصافينا ، ومن أجل هذا كان ينشر مقالاتى بلا مراجعة ، ولو عارضت سياسة (البلاغ)

وهنا نادرة تستحق التسجيل ، لما فيها من الدلالة على قوته الخلقية :

فى سنة ١٩٣٧ تعرّض البلاغ لأزمة مالية قضت بتخفيض مرتبات المحررين وإعفاء من يجوز عنهم الاستغناء ، ونظرتُ فرأيت مرتبى لم يُخصم منه شىء ، فكنت أتغافل عن طلبه ، ولكن إدارة البلاغ كانت تلاحقنى فترسله إلىّ بدون تسويف

وقدّرتُ فى نفسى أن عبد القادر يستبقينى بالرغم من تلك الأزمة المالية ، فأطعت أصدقائى من الوفديين ونقلت صحيفتى الأدبية إلى جريدة « المصرى » وكان بينها وبين « البلاغ » ضغائن وحقود . ولما سألنى عبد القادر عن السبب أجبت بأنى لا أرى رأيه فى نشر ما كان ينشر من « فضائح الوثائق » ولم أذكر السبب الصحيح وهو رغبتى فى إعفاء البلاغ من مرتبى فقد كنت أخشى أن أجرح عزة نفسه لو اقترحت العمل فى البلاغ بالمجان ، وكذلك ظلمت نفسى لأكرم صديقى بدون أن أدله على حقيقة ما أريد

وتحدث الناس بأن زكى مبارك عق صاحب البلاغ . فهل التفت صاحب البلاغ إلى أحاديث الناس ؟

هيهات . فما تغيّر عبد القادر ولا تبدّل ، وإنما ظل أخاً وفياً إلى أبعد حدود الأخوة والوفاء

من يعزينى فيك يا عبد القادر ، ومن يواسينى وقد غاب عنى وجهك المشرق الجميل ؟

ثم ماذا ؟

ثم كان عبد القادر رجلاً يستند للدهر والأيام أكمل استعداد . كان يدرك أن الرجل لا ينجح إلا إذا تسلح بقوة العزيمة وقوة النفس . فكان يقضى ليله ونهاره فى تدبير وسائل الحياة لجريدة البلاغ . وقد حدثنى مرة أنه يحب أن يعيش صحفياً ويموت صحفياً ، وأنه يشتهى أن ينقل لأبنائه هذا الميراث ، ولم يحس أحد مدلول كلمة « المستقبل » بقدر إحساس هذا الفقيد النبيل

عاش عبد القادر فى مقاعب جسام ثقال . فقد كان يعادى بعنف ، ويصادق بعنف ، ومن أجل هذا كانت حياته سلسلة من الآلام والآمال ، والعواطف العنيفة تزلزل بنيان الجسد فتسوق إليه الموت قبل أوان الموت

وكان عبد القادر على قوته الصحفية يحترم حياة التأليف ،

لأنه أبق على الزمان ، فكان يقضي أوقات فراغه وهى قليلة فى استقصاء حوادث التاريخ ، ولو قال قائل بأن عبد القادر هو أصدق مؤرخي مصر في القديم والحديث لما اتهمه أحد بالمبالغة والإغراق

وكان عبد القادر يحب أن تكون جريدته مَعرِضاً لجميع الآراء ، فعلى صفحات البلاغ أثيرت مشكلات ومعضلات هى أقوى وأصدق ما صدر عن العقول والقلوب ، وفي ميدان البلاغ تساول المئات من أقطاب الفكر والبيان

وكان عبد القادر حر العقل ، فلم يتذوق فى حياته طعم البهلوانيات الشعبية ، ولم يقوم إلا أنه مسئول أمام العقل ، ومن هنا كانت جريدته أصدق صحيفة صانت النضال السياسي من أوشار التبذل والإسفاف

قالت جريدة المصرى وهى خصم شريف :

« فقدنا زميلاً نصاوله إذا اختلفنا ، ونناضله إذا احتدم النزاع »

وأقول إن النضال العف النزيه سوف يستوحش لغياب عبد القادر ، وسوف يذكر خصومه أنهم فقدوا رجلاً كانت خصومته من علائم التشريف

إن جريدة المصرى تكافح كفاح الأبطال فى إعزاز الصحافة المصرية ، فهل يدرى صاحبها ومحرروها أن صاحب البلاغ كان السابق إلى رفع قواعد هذا البناء ؟

ذهبت جريدة المؤيد ، وبقى « بار المؤيد »

وذهبت جريدة اللواء ، وبقى « بار اللواء »

فهل نضمن بعد اليوم أن يبقى « المصرى » و « البلاغ » شاهدَيْن على قوة العقلية المصرية في البلاد المفطورة على حب الخلود ؟

ثم أما بعد فأنا أشعر بأنى لم أوفِ عبد القادر بعض ما يستحق من صادق الرثاء ، لأنى واجهت الموضوع وأنا فى حزن يبلبل الروح ، ويقلقل البيان

ولن يكون هذا آخر العهد يا عبد القادر ، فسوف أشغل نفسي بتأريخ مواهبك السامية . بعد أن تذهب كروب الحرب ويلتفت الناس إلى الحديث عن أكابر الرجال

زكي مبارك

وزارة الزراعة

اعــــلان

تقبل العطاءات بإدارة المخـــازن والمشتريات بالدقى لغــاية ظهر يوم ١٢ يوليو سنة ١٩٤١ عن توريد ٤٠٠٠ متر خرطـــوم كاوتش لقسم وقاية المزروعات . ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من الادارة المذكورة يوميا ما عدا العطلات الرسمية مقابل دفع مبلغ ٣٠ مليما بخـــلاف ٢٠ مليما أجرة البريد . ٨٢٢٧

مجموعة الفكر الأوربي – ٢

اشـــبنجلر

تأليف

عبد الرحمن بدوى

أعمق تحليل فى أروع عرض لأعظم فلاسفة الحضارة وصاحب المذهب الذى اهتزت له أوربا بعد الحرب ، لأنه تنبأ عليها بانحلالها ! وأقام بناء فلسفة التاريخ ، وكشف عن ينابيع الوجود وتيارات الحياة

والـكتاب يقع فى ٣٢٠ صفحة — وثمنه ١٥ قرشاً

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

٩ عدلى باشا — وفرعها ١٥ المدابغ